المجتمع الإسلاميّ والارتقاء إليه

متولي موسى

مع ظهور حركات البعث الإسلاميّ وتصاعد مطالبة الشعوب بتحكيم شريعة الله ظهرت الحمـــلات المكثفـــة في وسائل الإعلام العالمية والمحلية على السواء ، والتي تكشف عن عداء الشرق والغرب وأتباع الشرق والغرب للإســـلام الحق كما أنزله الله تعالى . وإن كان لأصحاب هذه الحملات في وسائل الإعلام التي يملكهـــا اليهـــود والنـــصارى والشيوعيون وغيرهم من أعداء الإسلام ما يبرّر العداء .. فأين المبرّر في ظهور مثل هذه الحملات المعادية في وســـائل إعلام يملكها في الأصل مسلمون ، وإن كانت الأنظمة الحاكمة في البلاد تابعة للشرق أو الغرب ؟ ..

إنّ من البديهيات عند المسلم أن يكون الناس في البلاد الإسلاميّة على الأقل .. مسلمين وأن يعيـــشوا في مجتمـــع إسلامي !!! ومع بداهة هذه القضية فإنها توشك أن تكون مجهولة عند عامة المسلمين ، أو هي على الأقل مبهمة ليس لها مدلول واضح ، وأقصى ما يمكن أن تعنيه في تصوّر كثير من المنعوتين بالإسلام هو أن يكون المـــسلم (طيّبـــاً) أو (مستقيماً في حاله) .. يصلّي ويصوم ويكون على خلق حسن ، وليس له دخل في الأحـــداث الـــتي تقـــع ، ولا في العلاقات القائمة في المجتمع .. وما أسهل وسائل التضليل تحت الشعارات المختلفة ، كشعار الوحـــدة الوطنيـــة ، أو (مصلحة البلاد في الظروف الراهنة) أو أن الإصلاح يكون عن طريق المؤسسات (الصورية) المختصة في المجتمع ، إلخ .. ولا شك أن هذا ليس هو الإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ ، بل ترجع المعاني المذكورة إلى انحسار الإسلام في واقع المجتمع وفي حياة المنعوتين بالإسلام ..

وكثير من الناس يؤمن يقيناً أن الإسلام –بكماله وشموله– هو الخير المطلق ، والحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بـــين يديه ولا من خلفه ، ولكنّهم يتساءلون كيف يمكن أن يطبّق الإسلام في هذه المجتمعات التي ابتعدت بواقعهـــا عـــن حقيقة الإسلام ؟ .. أو كيف نمارس الإسلام في حياتنا الخاصة –على الأقل– في هذه المجتمعات البعيدة كلّ البعد عن مبادئ الإسلام ، بل المعادية له في كثير من الأحيان ؟

نظرة موضوعية إلى التاريخ تبيّن لنا أن ما أصاب المسلمين اليوم من هوان وذلّ وخزي وفساد وانحلال وتفكّـــك إنما هو حصيلة زمن طويل تمّ فيه التخلّي المستمر تدريجياً عن حقيقة الإسلام

وبديهي أنّه لا توجد على الأرض حلول سحرية للمشكلات ، وعلى ذلك فلا يمكن انتظار (علاج سحري) لمـــا أصاب المسلمين ، فضلاً عن أنّه تكوّن كحصيلة لقرون طويلة ، فلا يمكن علاجه في زمن قصير .. ومعنى هذا ضرورة المزيد من الجهد الإيجابي والمعاناة حتى يتغيّر الواقع السيّئ تدريجياً إلى الصورة الحقيقية للإسلام ، مع الثقة مـــن تحقـــق

وعد الله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِـنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ... ﴾ [النور : 55]

والإقرار بأنّ الحركة نحو مجتمع إسلامي تحتاج إلى الجهد ثمّ العمل على التغيير الجذري الشامل للأسس التي يقـــوم عليها المجتمع المنحرف عن الإسلام .. يتطلّب طليعة إسلامية تحقق ذلك التغيير في حياتها أوّلاً ، وتدعو الناس إلى هذا التغيير وتجاهد في ذلك وتحتمل المشقة ولو حاربها الناس بكلّ الوسائل ، وحتى يأذن الله بتغيير ما عليه الناس من السوء بعد أن يغيّروا ما بأنفسهم من مشاعر وتصوّرات ، وباتباع المنهج الإسلاميّ كما طبّقه من قبل رسول الله ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم

تميز المجتمع الإسلاميّ

إنّ السبب الأساسي في تميّز المجتمع الإسلاميّ وتفرّده بنظامه الخاص هو أنّه من صنع شريعة خاصة ، جاءت مـــن عند الله ، وهي التي أوجدت المجتمع وأقامته على الأساس الذي أراده الله عزَّ وجلَّ لعباده ، لا الأسس الـــتي أرادهـــا بعض العباد لبعضهم .. وفي ظلّ هذه الشريعة تمّ نمو الجماعة الإسلاميّة ووجدت ارتباطات العمل والإنتاج والحكـــم وقواعد الآداب الفردية والاجتماعية ومبادئ السلوك وقوانين التعامل وسائر مقوّمات المجتمع الخاصة التي تحدّد نوعـــه وترسم له طريق النمو والتطور .. وهنا تجدر الإشارة إلى :

▪ أن الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلاميّ هو عقيدة الإسلام وما ينبثق عنها من أحكام .. فليس هو مجتمعاً محدوداً بحدود أرضية ، ولا مجتمعاً عنصرياً محدوداً بقوم أو جنس أو عنصر ، إنّما يمتد إلى المدى الـــذي تـــصل إليـــه العقيدة .. وعلى ذلك فلا امتيازات فيه تقوم على أساس اللون أو الجنس أو الإقليم أو النسب ، كما أن هذه الخاصية تجعل المجتمع الإسلاميّ مجتمعاً عالمياً يضمّ مختلف الأجناس والأقوام ، إذ باستطاعة أيّ إنسان أن يعتنق عقيدة الإسلام فيكون أحد أفراد المجتمع الإسلاميّ

▪ أنّ الخاصية الرئيسية التي تفرّد بها النظام الاجتماعي الإسلاميّ عن سائر النظم الاجتماعية التي عرفتها البـــشرية من قبل ومن بعد ، هي أنّه نظام ربّاني وأنّ باقي النظم وضعية من صنع المجتمع ذاته .. ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَـــتْ لِلنَّاسِ** ... ﴾ [آل عمران : 110] .. فأمّة الإسلام لم تخرج نفسها ولكنّها لجأت إلى ربّها واتبعت منهجه فارتقـــت وسادت بفضل الله عزَّ وجلّ

الارتقاء الطبيعي للأفراد

إنّ الإسلام يأخذ بيد الإنسان في طريق الارتقاء إلى القمة خطوة خطوة .. وبذلك لا يكون التطور في **المبـــادئ والأهداف** ولكن في قرب **الإنسان** يوماً بعد يوم من هذه المباديء والأهداف

ومن له إلمام بعلوم العمران يعرف أن المجتمع لا يتكون ولا يوجد بطرق صناعية ، بل ينشأ نشوءاً طبيعياً بتطــوّر أفراده وتكوّن مؤسساته

ونظراً لأن المجتمع الإسلاميّ ليس مجموعة من الأفراد ينتمون إلى الإسلام .. فقط ولا مجموعة من الناس يعيــشون في بلد .. كان في يوم من الأيام يحكم بالإسلام ، فإنّه يتطلب أن يتوافر العدد البشري الصالح لتطبيق أحكام الإسلام ، وممّن لديهم الاستعداد للحياة بالإسلام وللإسلام .. ومعنى ذلك أن العلاقات بين أفراد المجتمع يجب أن تكون قائمة على أسس إسلامية ، وكذلك المؤسسات التي تجسّد هذه العلاقات يجب أن تكون قائمة على أسس إسلامية أيضا .

والجدير بالذكر أن النتيجة المشار إليها تكون طبيعية لمقتضى الأحوال والظروف المتجمّعة على الزمن والنابعة عن أفراد المجتمع الذين تربّوا على الإسلام كما أنزله الله تعالى ، لا على أساس الأخذ ببعض الجوانب وترك جوانب أخرى .. أي أن المجتمع الإسلاميّ لن تنشق عنه الأرض ولن ينــزل أفراده من السماء .. إنما لا بدّ أن تتكوّن عناصره داخل حركة إسلامية شاملة ، تربيّ أفرادها على الإسلام الحقّ كما أنزله الله ، وبحيث يكون لديهم الاستعداد التام لتحمّــل تبعة هذا العمل الشاق في هذه الفترة التاريخية الحاسمة ، وبحيث ينعكس ذلك في مواقعهم وعملهم مجسّدين للإسلام في العلاقات بينهم من ناحية وبينهم وبين غيرهم من ناحية أخرى ، ويسعون إلى تكوين المؤسسات التي تطبّق الإســلام وتحميه من الاستغلال .. ثم تبدأ هذه الحركة بالنموّ في المجالات المختلفة صعدا . وليعلم أفراد هــذه الحركــة أنّهــم بتميّزهم بهذا المنهج وهذا التصوّر سوف يصطدمون مع أعداء الإسلام ومستغلي الإسلام ، ولكنّ ظهور هذه الفئة في هذه الظروف الحاسمة ضرورة لتميّز الإسلام بمواقف النماذج الطليعية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُــوا اصْــبِرُوا وَصَــابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : 200] ، وبمثل هذا الجهاد وهذا الكفــاح يمــتحن القــائمون بالدعوة وحاملو لوائها بأنواع من المصائب والشدائد ، تكذيباً وتعذيباً وتشريداً وقتالا .. كما تقدّم لهم المغريات من شهوات الدنيا وملذاتها ، فيجب عليهم الصبر وعدم الافتتان في دينهم ﴿ ... **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْــرِ فِتْنَــةً وَإِلَيْنَــا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء : 35] ، ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمــد : 31] ، ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَــشِّرِ الــصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : 155]

نعم .. النصر في النهاية للصابرين .. وإن الشعوب إذا وجدت النماذج القيادية الحيّة التي تجسّد الإسلام كما أنزله الله فسوف تلتف حول هذه القيادات ، وآنذاك تنجذب إلى هذه الدعوة أفئدة الذين يوجد فيهم الخير والــصلاح ، وأمّا أصحاب الطباع الفاسدة والذين في قلوبهم مرض ممّن يتبعون الشهوات والأهواء ، فــسوف تختفــي أصــواتهم ويضمحلّ نفوذهم شيئاً فشيئاً بإزاء تيار الحركة الجارف وسيرها الحثيث . وهكــذا يرتقــي الأفــراد في ســلوكهم الإسلاميّ وترتفع كفاءاتهم وفقاً لمنهج التعليم والتربية ، وبالتالي يمكن أن تتشكّل المؤسسات التي تجسّد الإسلام .. من خلال عامل الزمن والبقاء الحركي المنظم إن شاء الله